﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الانقيادِ للتَّكاليفِ، وبين شكر نعم الله والوفاء بعهده المنيف

لَمَّا حَثَّ الله تعالى عبادَه على الانقيادِ للتَّكاليفِ؛ تعظيمًا لأمْرِ الله، وشفقةً على خَلْقِ الله، وذَكَّر عِبادَه المؤمنين بنِعمِه العظيمة عليهم؛ طَلَبَ إليهم في هذه الآيةِ الكريمةِ، أن يشكروا تلك النِّعَمَ الجليلةَ، وذلك بالوفاءِ له بالعهدِ، ثم إنَّ هذا ثالثُ نداءٍ للَّذين آمنوا في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ﴿*يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، فوحدةُ الأسلوبِ الإنشائيِّ في (نداء الَّذين آمنوا) ممَّا يحقِّقُ التَّرابُطَ الشَّكليَّ الَّذي يدعمُه التَّرابطُ المعنويُّ بما في حَيِّزِ النِّداء من تشريعاتٍ و توجيهاتٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: قوَّامُ مبالغةٌ من قائم، والقائمُ بالشَّيء معناه: الكفيلُ به الَّذي يأتي به على وجه، "ومعنى القيامِ لله: هو أن يقومَ له بالحقِّ في كلِّ ما يلزمُه القيامُ به منَ الأمرِ بالمعروف والعملِ به، والنَّهيِ عنِ المنكر وتجنُّبِه"[1]، والقوَّام من القيام الَّذي هو المراعاة للشَّيء والحفظ له[2].

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: القِسْطُ: هو النَّصيبُ بالعدل كالنِّصف والنِّصفة، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) الواحدي، البسيط: 7/290.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 739.

بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [يونس: 4]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: 9]...والقِسْطُ: هو أن يأخذ قِسْط غيرِه، وذلك جُورٌ، والإِقْسَاطُ: أن يعطِيَ قِسْطَ غيرِه، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرَّجل؛ إذا جارَ، وأَقْسَطَ؛ إذا عَدَل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: 15]، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9][1].

3) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يَحْمِلَنَّكُم، وجَرَمَ فُلانٌ: أذنَب، وارتكب الإثم، وأَجْرمَ عليهم وإليهم جريمةً: جَنى جِنايةً، وجَرَمَ الرَّجُلَ: حَمَّلَه جُرْمًا، والمعنى هنا: لا يَحْمِلَنَّكُم بُغْضُ قَوْمٍ على تَرْك العدلِ، والاعتداءِ عليهم، "وقد قيل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يدخلنَّكم في الجرم، كما يقال: أثمته، أي: أدخلته في الإثم، وقال أبو العبَّاس: قال الأخفش في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: 2]، أي: لا يحقنَّ لكم؛ لأنَّ قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النَّحل: 62]، إنَّما هو حقٌّ أنَّ لهم النَّار"[2].

4) ﴿شَنَـَٔانُ﴾: أي: بُغْضٌ، يقال: شَنِئْتُ الرَّجُلَ أشْنؤُه شَنْئًا، وشنآنًا، وشُنئًا، ومشنأةً؛ إذا أبغضتُه، والمعنى: "لا يحملنَّكم بغض الكافرين وعداوتهم، أو بغض كلٍّ من تبغضونه، وعداوة كلٍّ من تعادونه، لأمر اقتضى بغضه أو عداوته من المؤمنين والكافرين، أو الموحِّدين والمشركين، لا يحملنَّكم ذلك البغض على أن تجوروا في الحكم؛ إذا حكمتم، أو في الشَّهادة؛ إذا شهدتم"[3].

5) ﴿لِلتَّقْوَىٰۖ﴾: التَّقْوى: فِعْل ما أَمَر الله به ورسولُه، وتَرْكُ ما نَهَى عنه الله ورسولُه ﷺ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين المُوحِّدين في هذه الآيةِ الكريمةِ بتعظيمِ أوامرِه سبحانه، وإظهارِ العبوديَّةِ له، وتعظيمِ الرُّبوبيَّةِ، ووجوبِ القيامِ بالعدل حتَّى مع الأعداء، وتأديَةِ

(1) الرَّاغب، المفردات: (قسط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 11/46.
(3) الجزائريّ، نداءات الرَّحمن لأهل الإيمان، ص: 86.

الشَّهادةِ بِعَدْلٍ وصِدْقٍ دون مجاملةٍ ولا محاباةٍ، وأنْ يُلازموا العدلَ في شَهادَتِهم، ولا يَحملَنَّهم بُغضُهم وكراهِيَتُهم لقومٍ على ألَّا يَعدِلوا، بل عليهم مُلازمةُ العدلِ؛ فإنَّه أقربُ لتحقيقِ كمالِ التَّقوى، وليتَّقوا اللَّه؛ فإنَّ اللَّه خبيرٌ بما يعملونَ.

حثُّ المؤمنين على العدل مع المؤالف والمخالف؛ تحقيقًا لتقوى الله تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتةُ التَّعبيرِ باللَّفظ ﴿كُونُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾:

قَوْلُهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ إشارَةٌ إلى التَّعْظِيمِ لأمْرِ اللَّه، ومَعْنى القِيامِ للَّه: هو أنْ يَقُومَ للَّه بالحَقِّ في كُلِّ ما يَلْزَمُهُ القِيامُ بِهِ مِن إظْهارِ العُبُودِيَّةِ، والانقيادِ له تعالى، وتَعْظِيمِ الرُّبُوبِيَّةِ[1]، وفي التَّعبيرِ بالكَوْنِ إشارةٌ بأن يجعلَ المُؤْمِنُون القيامَ للَّه تعالى أمرًا مستمِرًّا، ونَهْجًا راسخًا في حياتِهم، بمداومةِ الطَّاعة للَّه تعالى، والانقيادِ له؛ لِيَصِيرَ صِفَةً راسِخَة، "أي: كونوا من أصحاب الهمم العالية، وأهل الإيقان والإخلاص للَّه تعالى، في كلِّ عمل تعملونه من أمر دينكم، أو أمر دنياكم، ومعنى الإخلاص للَّه في أعمال الدُّنيا: أن تكون بنيَّة صالحة، بأن يريد العامل بعمله الخير، والتزام الحقِّ من غير شائبة اعتداء، على حقِّ أحد، أو إيقاع ضرر به"[2]، والعمل على أن يكون الحال منطبقًا على مراد اللَّه، يحقِّق الكينونة العابدة، بما يضمن السَّعادة العاجلة والآجلة.

من كانت بالمولى تعالى كينونته؛ سعدت بين يدي الله وقفته

التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، مناط بعلوِّ الهمَّة، وقداسة المهمَّة:

وقد أكَّد هذا المعنى التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، أيْ: مُجْتَهِدِينَ في القِيامِ، و(قَوَّام) معناها: مَن يُبالِغُ بالقِيام بالشَّيء وإتقانه، والإتيانِ به على الوجهِ الأكملِ، وكَوْنُه للَّه تعالى، يعني: المبالغةَ في الفعل لأجلِ اللَّه تعالى، لا لأحدٍ سواه سبحانه، والتَّعبيرُ

دلالة السِّياق على العبوديَّة المرومة بالقيامِ للَّه باطِّراد وديمومة

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/180.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/226.

بصيغةِ المبالغة لا يدلُّ على القيامِ لأمر اللّه تعالى مَرَّة ولا مَرَّتين، ولا حتَّى مَرَّاتٍ، بل يدلُّ على كثرةِ القيامِ والانقيادِ كَثْرةً مُطَّرِدةً لا تنقطعُ، وأسلوب النِّداء، وفعل الأمر قبل لفظ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، يؤكِّدان مطلوب اللّه في هذا المضمار؛ لتقرير استمراريَّة عبوديَّته ودوامها أخذًا لها بالقوَّة لا بالضَّعف، وبالهمَّة لا بالتَّواني، وقد قال اللّه ليحيى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12].

عُبِّر بالتَّركيب: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنَّه شاملٌ للخير والعدل:

قوله: "﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: كلمة ﴿شُهَدَآءَ﴾ تدلُّ على الحضور، وعلى الإثباتِ، وعلى أداءِ الشَّهادة، وعلى الحُكْم، وهي في هذا المقام، تشملُ كلَّ هذا، فالمعنى: لا يحكمُون إلَّا بالقِسْط، أي: بالعدلِ، ولا يَشهدون إلَّا بالعدل، فحضورُهم في القِسْط، ونُطقُهم بالقسط، وحكمُهم بالقسطِ، وعملُهم بالقسط، فلا يكون إلَّا بالخير، وفي الخيرِ، وللخير، وعُبِّر بقولِه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنَّه شاملٌ للخير كُلِّه، وهو أساسٌ من أُسُسِ هذا الدِّين، وعليه يقوم بناءُ الأمر، ولأنَّ العدلَ ميزانُ الخير؛ لذا أردفَ بقولِه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾[1]، تلك هي أخلاقُ الإسلام السَّامية، وشريعتُه العادلةُ، ومبادئُه النَّبيلةُ، ومجاهدةُ النَّفس للانقياد للّه في كلِّ أوامرِه ونواهيه وتعظيم شعائرِه، وتقديسِ ذاته سبحانه يُربِّي فيها الوازعَ الَّذي يدفعُها للحُكم بالقسطِ، والشَّهادةِ بالعدلِ، وهذه هي الصِّلةُ بين الجُملتَيْن: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ و﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

هناك اتِّصال وثيق، بين القوامة لله، والشَّهادة بالقسط

دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ على الإنصاف، وأثرها في السِّياق.

أَجْرَمَ بمعنى: ارتكبَ إثْمًا؛ لأنَّه كَسَبَه، وقد يُضافُ إلى هذا المعنى: ولا يحملَنَّكم حِمْلًا آثمًا، ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، أي: بُغْضُكم الشَّديدُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/2058.

لِقَوم على ألَّا تعدلُوا معهم، بل أعطُوهم حقوقَهم كاملةً دون نَقْص، وقد وَرَدَ نَهْيٌ للمؤمنين عنِ الاعتداء على المُشركين الصَّادِّين عنِ البيت الحرام، بألَّا يكونَ البُغضُ الشَّديدُ سببًا للاعتداء، ولا سببًا لِمَنْعِ الحُقوق، بل يُعْطَى كُلُّ ذي حَقٍّ حقَّه ولو كان عدُوًّا شرسًا؛ فالحقُّ ليس مِنحةً لشخصٍ يُعطيه؛ إنْ أَحَبَّ، ويمسكُه؛ إنْ أبغَضَ، بل إنَّ التَّمكينَ منه أَمْرٌ مُقَدَّسٌ، أَمَرَ اللّه تعالى به، وحَثَّ عليه[1]، والعَدْلُ أقربُ إلى التَّقوى، وأَدْخَلُ في مناسَبَتِها، لكونِهِ لُطفًا فيها، وفيه تنبيهٌ عظيمٌ على أنَّ وجودَ العَدْلِ مع الكفَّارِ الَّذين هم أعداءُ اللّه، إذا كان بهذه الصِّفَةِ منَ القُوَّة؛ فما الظَّنُّ بوجوبِه مع المؤمنينَ الَّذين هم أولياؤُه وأحِبَّاؤُه؟[2]، ولا يخفَى ما في مادَّة الفعل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ منَ الإيحاء بالبشاعة، وما فيه منَ التَّنفير والتَّبغيض منَ الظُّلم، وفي ﴿شَنَآنُ﴾ بغض وزيادة هي الازدراء والتقذُّر، ويقال: شنِئْتُه: تقذَّرته بُغضًا له[3]، وهذا يعني: أنَّه مهما كان في قومٍ من عيوبٍ ومساوئَ، تدعو لبُغضهم، فلا يمنعنَّكم هذا من معاملتِهم بالعدل، وقد قال عمر بن الخطَّاب ﷺ لأبي مريم الحنفيِّ: "واللّه لا أُحبُّكَ، حتَّى تُحبَّ الأرضُ الدَّمَ المسفوح، قال: فتمنعني لذلك حقًّا؟ قال: لا... قال: فلا ضَير، إنَّما يأسفُ على الحبِّ النِّساء"[4].

من التَّربيَة الرَّائدة العدلُ مع الصَّديق المساند والعدوِّ المعاند

إقامة العدل مع الأذى والشَّنآن من أصعب الممارسات على الإنسان:

الآية تأمر المؤمنين بأمر هو في غاية المشقَّة على النُّفوس البشريَّة، وهو الحذر من الميل عن العدل مع الشَّانئ المناوئ، وتلك مرتبة أعلى من ترك الاعتداء والوقوف عنده، تسمو إلى إقامة العدل، مع الشُّعور بالكراهيَةِ والبغضاء؛ لأنَّ "التَّكليف الأوَّل سلبيٌّ،

التَّوجيه إلى ضبط النَّفس لإقامة العدل مهما كانت المشاعر

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2059.
(2) أبوحَيَّان، البحر المحيط: 3/440.
(3) الراغب، المفردات: (صدر).
(4) الجاحظ، البيان والتّبيين: 2/60.

ينتهي عند الكفِّ عن الاعتداء، فأمَّا التَّكليف الثَّاني؛ فأشقُّ؛ لأنَّه إجراءٌ إيجابيٌّ، يحمل النَّفس على مباشرة العدل مع المبغوضين المشنوئين "[1].

السِّرُّ في تقدُّم القوامة بالقسط على الشَّهادة في النِّساء، وتأخُّرها في المائدة:

ورد في سورة النِّساء [الآية: 135]، بتقدُّم القوامة بالقسط، على الشَّهادة للّه في قولِه تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، على عكس ما في سورة المائدة، حيث تقدَّمت القوامة للّه على الشَّهادة بالقسط في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، فما السِّرُّ في هذه المُغايرةِ؟ الجوابُ: وردت آيةُ النِّساء في سياق "آياتِ القضاءِ في الحقوق... ثمَّ أردفت بأحكام المعاملة بين الرِّجال والنِّساء، فكان الأهمُّ فيها أمرَ العدل، فالشَّهادةُ، كما يتطلَّبُه السِّياقُ؛ لذا قُدِّم فيها قولُه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فالقسطُ فيها: هو العدلُ في القضاء؛ لذلك عُدِّي إليه بالباء الَّتي تدلُّ على المُلاصقةِ والملابسة؛ إذْ قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: التزمُوا العدلَ التزامًا تامًّا، أمَّا آيةُ المائدة؛ فمقامُها التَّذكيرُ بميثاق اللّه، فكان منَ المناسبِ الوفاءُ بعهود عبادِه له سبحانه، لذلك عُدِّي قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ باللَّام الَّتي تفيدُ الاختصاصَ؛ ولأنَّ العهدَ شهادةٌ أُتْبِعَ قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، بقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أي: شهداء بالعدل، شهادةً لا حَيف فيها ولا زورٌ، وأجدرُ شهادةٍ بذلك شهادتُهم للّه تعالى، وقد حصلَ من مجموع الآيتين: وجوبُ القيام بالعدل، والشَّهادةِ به، ووجوبُ القيام للّه، والشَّهادةِ له"[2]، ولأبي حَيَّانٍ الأندلسيِّ توجيهٌ لطيفٌ ناظرٌ فيه لمقام الآيتين وسياقهما، خاصَّةً سورة النِّساء[3]، إذًا الخلاصةُ في توجيهِ هذا التَّقديم والتَّأخير في آيتَي النِّساء والمائدة: هو السِّياقُ والمَقامُ، حيث ورد هذا التَّغايرُ وَفْقًا لِمَا استدعاه سياقُ كُلٍّ منَ الآيتين ومقامُهما.

---

(1) صافي، الجدول: 5/291.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/134-135.

(3) يقول أبو حيَّان: "تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ الجُمْلَةِ الْأُولى في النِّساء، إلاَّ أنَّ هُناكَ بُدِئَ بِالقِسْط، وهُنا أُخِّر، وهذا مِنَ التَّوَسُّعِ في الكَلامِ والتَّفَنُّنِ في الفَصاحَة، ويَلْزَمُ مَن كانَ قائِمًا لله أنْ يَكُونَ شاهِدًا بِالقِسْط، ومَن كانَ قائِمًا بِالقِسْطِ أنْ يَكُونَ قائِمًا لله، إلَّا أنَّ الَّتِي في النِّساءِ جاءَتْ في مَعْرِضِ الاعْتِرافِ عَلى نَفْسِهِ وعلى الوالِدَيْنِ والأقْرَبِين، فَبُدِئَ فِيها بِالقِسْطِ الَّذِي هو العَدْلُ والسَّواء مِن غَيْرِ مُحاباةِ نَفْسٍ ولا والِدٍ ولا قَرابَةٍ، وهُنا جاءَتْ في مَعْرِضِ تَرْكِ العَداواتِ والإحَن، فَبُدِئَ فِيها بِالقِيامِ لله تَعالى أوَّلًا، لِأنَّهُ أرْدَعُ لِلْمُؤْمِنِين، ثُمَّ أرْدَفَ بِالشَّهادَةِ بِالعَدْل، فالَّتِي في مَعْرِضِ المَحَبَّةِ والمُحاباةِ بُدِئَ فِيهِ بِما هو آكَدُ وهو القِسْط، وفي مَعْرِضِ العَداوَةِ والشَّنَآنِ بُدِئَ فِيها بِالقِيامِ لله، فَناسَبَ كُلُّ مَعْرِضٍ بِما جِيءَ بِهِ إلَيْه، وأيْضًا فَتَقَدَّمَ هُناكَ حَدِيثُ النُّشُوزِ والإعْراض، وقَوْلُه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ [النساء: 129]، وقَوْلُه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾ [النساء: 128]، فَناسَبَ تَقْدِيمُ القِسْط، وهُنا تَأخَّرَ ذِكْرُ العَداوَةِ فَناسَبَ أنْ يُجاوِرَها ذِكْرُ القِسْط، وتَعْدِيَةُ يَجْرِمَنَّكم ب: (عَلى) إلَّا أنْ يُضَمَّنَ مَعْنى ما يَتَعَدَّى بِها، وهو خِلافُ الأصْل، ينظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/454-455.

دلالة التَّصريح بالأمرِ بالعدلِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

أمرَ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين بالعدلِ مرَّتين: الأولى: ضمنيَّةٌ في قولِه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، والثَّانيةُ: صريحةٌ في قولِه: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، وبَيَّنَ أنَّ العدل بِمَكانٍ مِنَ التَّقْوى بَعْدَ ما نَهاهم عَنِ تَرْك العدلِ؛ ولو مع الكفَّار، وفي الأمرِ الصَّريح مزيدُ حثٍّ وترغيبٍ في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، أي: العَدْلُ أقْرَبُ للتَّقْوى، وإذا كانَ هَذا لِلْعَدْلِ مَعَ الكُفَّارِ، فَما ظَنُّكَ بِالعَدْلِ مَعَ المُؤْمِنِينَ؟ وقولُه: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ يُشعرُ أنَّ التَّقوى غايةٌ عظيمةٌ، وهدفٌ راقٍ، وقد تعدَّدت وسائلُ الوصولِ إليه، لكنَّ العدلَ هو أقربُ تلك الوسائلِ الَّتي يُتوَسَّل بها للوصولِ إلى تلك الغايةِ، ثُمَّ أمَرَ اللّه تعالى بِالتَّقْوى إثْرَ ما بَيَّنَ أنَّ العَدْلَ أقْرَبُ لَهُ؛ اعْتِناءً بِشَأْنِه وتَنْبِيهًا عَلى أنَّهُ مِلاكُ الأمْرِ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: مِنَ الأعْمالِ، فَيُجازِيكم بِذَلِكَ، وتَكْرِيرُ هَذا الحُكْمِ، إمَّا لِاخْتِلافِ السَّبَبِ، كَما قِيلَ: إنَّ الأُولى [المائدة: 2]: نَزَلَتْ في المُشْرِكِينَ، وهَذِهِ في اليَهُودِ، أوْ لِمَزِيدِ الاهْتِمامِ بِالعَدْلِ والمُبالَغَةِ في إطْفاءِ ثائِرَةِ الغَيْظِ[1]، وجمْلَةُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لِما قَبْلَها، وحَيْثُ كانَ مَضْمُونُها مُنْبِئًا عَنِ الوَعْدِ والوَعِيدِ؛ عَقَّبَ بِالوَعْدِ لِمَن يُحافِظُ عَلى طاعَتِهِ تَعالى، وبِالوَعِيدِ لِمَن يُخِلُّ بِها[2]، والظَّاهِرُ أنَّ هذا ليس من تكرير التَّقوى؛ لأنَّ الأُولى في العدل، والثَّانيةَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما هو أعمُّ منَ العدل بدليلِ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾.

العدل أقربُ الوسائلِ للوصولِ إلى التَّقوى، باعتبارها غاية عظمى

بيان ذكر تعلُّق الضَّمير بالمتقدِّم معنى في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

ومعنى تعلُّق الضَّمير بالمتقدِّم: أنَّه "تقدَّم ذكره بوجه ما، سواء

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/133.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/12.

كان التَّقدُّم لفظًا، بأن يكون المتقدِّم ملفوظًا تحقيقًا، مثل: (ضرب زيدٌ غلامَه)، أو تقديرًا مثل: (ضرب غلامَه زيدٌ)، أو كان التَّقدُّم معنًى: بأن يكون المتقدِّم مذكورًا من حيث المعنى، لا من حيث اللَّفظ، سواء كان ذلك المعنى مفهومًا من لفظ بعينه، نحو: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، فإنَّ مرجع ضمير (هو): (العدل)، المفهوم من قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، أم من سياق الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾؛ لأنَّه لمَّا تقدَّم ذكر الميراث؛ دلَّ على أنَّ ثمَّة مورِّثًا، وجاء الضَّمير في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾، فكأنَّه تقدَّم ذكره معنًى[1].

الضَّمائر وسائل نحويَّة وبلاغيَّة؛ لارتباط المعاني وانسجام السِّياقات

دلالة العُدولِ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

العدولُ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ المعتاد - وقد ذكر المتعلَّق - أن يقال: (واتَّقُوه إنَّه خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)؛ ولكنَّ إيراد الاسم الظَّاهر، غايته: تربية المهابةِ لاسم اللَّه الأعظم الَّذي هو علم على واجب الوجود، بكلِّ معاني الكمال فيه، وحتَّى يتناسبَ ذلك مع مضمونِ التَّهديدِ في السِّياق، حيث يخبر أنَّ المدسوس في السَّرائر، والمدفون في البواطن، لا يخفى منه على اللَّه شيء؛ لأنَّه المحيط بكلِّ شيء علمًا، وهذا نوع من التَّنبيه المقرِّع عن المخالفة، والدَّاعي إلى الالتزام بالهدى؛ حتَّى لا يفقده اللَّه حيث أمره، ولا يراه حيث نهاه.

التَّقوى معرفة يقينيَّة، بأنَّ الله خبير بالأحوال الظَّاهرة والخفيَّة

أُتِيَ بصفةِ ﴿خَبِيرُۢ﴾؛ ليُنَبِّه بها على الصِّفَة القلبيَّةِ الَّتي لا تخفى على الله:

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾: الخبيرُ أدقُّ منَ العليم؛ لأنَّ الخبيرَ منَ الخُبْرِ، وهو العِلْمُ ببواطنِ الأَمْرِ؛ ولذلك سُمِّيَتِ المزارعةُ: مخابرةً؛ وسُمِّي الزَّارِعُ: خبيرًا؛ لأنَّه يدسُّ الحَبَّ في الأَرْضِ، فيَختفي، فالخبيرُ هو العليمُ بخفايا الأُمورِ، وقد جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ختامًا للآية الكريمةِ، وتعليلًا لما قبْلها، ولأنَّه كما

من راقب الله في الخلوات؛ ظهرت شواهد خشيته في الجلوات

(1) التَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/219.

كان البُغْضُ محلُّه القلبُ، وهو الدَّاعي إلى تركِ العدلِ، أُمِرَ بالتَّقوى، وأُتِيَ بصفة ﴿خَبِيرٌ﴾ الَّتي تختصُّ بما لَطُف إدراكُه، فناسبَ هذه الصِّفةَ أن يُنَبَّه بها على الصِّفةِ القلبيَّةِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسط والعدل:

(القسط): هو العدل، قال الزَّجَّاج: القسط مصدر يوصف به، تقول: "ميزانٌ قسطٌ وموازينُ قسطٌ، والمعنى: ذات قسط"[2]، وهو مرويٌّ عن العرب، نحو قول أبي طالب:

بِمِيزانِ قِسْطٍ لَا يَغِلُّ شَعِيرَةً***وَوَزَّانِ صِدْقٍ وَزْنُهُ غَيْرُ عَائِلِ[3].

والعدْل: ما قام في النُّفوس أنَّه مستقيم لا ينكره مميِّز[4]، وهو: عبارة عن الأمر المتوسِّط بين طرفي الإفراط والتَّفريط، وفي اصطلاح النَّحويِّين: خروج الاسم عن صيغته الأصليَّة إلى صيغة أخرى، وفي اصطلاح الفقهاء: من اجتنب الكبائر، ولم يصرَّ على الصَّغائر، وغلب صوابُه، واجتنب الأفعال الخسيسة، كالأكل في الطَّريق والبول، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحقِّ[5]، والعدل: القصد في الأمور، وهو خلاف الجور، يقال: عدل في أمره عدلًا، من باب ضرب، وعدل على القوم عدلًا أيضًا، ومعدِّلة: بكسر الدَّال وفتحها، وعدل عن الطَّريق عُدولًا: مال عنه، وانصرف، وعدل عدلًا من باب تعب: جار وظلم[6]، والقسطاس: الميزان، قيل: عربيٌّ مأخوذ من القسط، وهو العدل، وقيل: روميٌّ معرَّب، بضمِّ القاف وكسرها، وقرئ بهما في السَّبعة، والجمع قساطيس[7]، وعليه؛ فإنَّ العدل أعمُّ من القسط؛ لأنَّ القسط: يناسب الجزاء الحسن فقط، بينما العدل: يشمل الجزاء الحسن وضدَّه، وأيضًا فإنَّ القسط: هو العدل في الظَّاهر، بينما العدل: يكون في الظَّاهر والباطن جميعًا... و القسط: ضدُّه الجور، والعدل: ضدُّه الظُّلم.

---

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/440.
(2) الواحديّ، الوسيط: 3/239.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/169.
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/330.
(5) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 147.
(6) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (عدل).
(7) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (قسط).

الشَّنآن والعداوة والبغضاء:

الشَّنآن: مصدر بمعنى: شدَّة البغض، يُقَالُ: شَنِئَ فُلَانٌ فُلَانًا؛ إِذَا أَبْغَضَهُ، وَهُوَ الشَّنَآنُ، وَرُبَّمَا خَفَّفُوا، فَقَالُوا: الشَّنَانُ، وَأَنْشَدُوا:

فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَذُّ وَتَشْتَهِي *** وَإِنْ لَامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَأَفْنَدَا

وَرَجُلٌ مِشْنَاءٌ عَلَى مِفْعَالٍ؛ إِذَا كَانَ يُبْغِضُهُ النَّاسُ[1]، وأمَّا العداوة؛ فاسم عامٌّ من العدوِّ، يقال: (عدوٌّ بيِّنُ العداوة)... قال ابن الأنباريِّ: قولهم: (هو عدوُّه)، معناه: يعدُو عليه بالمكروه، ويظلمه[2]، والْعَداوَةُ أخصُّ من البَغْضاءِ، لأنَّ كلَّ عدوٍّ يُبْغَضُ، وقد يُبْغضُ من ليس بعدوٍّ، وكأنَّ العداوة شيْءٌ مشتهر، يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النُّفوس، وقد ألقى اللّه الأمرين على بني إسرائيل[3]، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: 14]، ويظهر أنَّ العداوة ملمح عامٌّ ومألوف، وعليه فُطر بنو آدم، وإليه ندبوا في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [البقرة: 36]، فإذا اشتدَّت العداوة؛ كانت بغضاء، فإذا اشتدَّت البغضاء؛ كان الشَّنآن.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/217.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/72.
(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/216.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»